المحاضرة 10: ابستمولوجيا العلوم الإنسانية

1/في مفهوم إبستمولوجيا العلوم الإنسانية

ان قولنا ابستمولوجيا العلوم الإنسانية يشير اللفظ إلى لقاء حقلين معرفيين الابستمولوجيا" من جهة و العلوم الإنسانية من جهة أخرى، وباعتبار الابستمولوجيا نظرية في المعرفة العلمية وتهدف إلى إبراز القيم العلمية من خلال نقد فروض العلم ونتائجه وبيان أسسه المنطقية، وفي المقابل نجد العلوم الإنسانية باعتبارها مجال من مجالات العلم والتي تحاول أن تقدم لنا فهما لمختلف الظواهر الإنسانية، وبالتالي من خلال هذا الموجز يمكن اعتبار لقاء هذين الحقلين أمر بديهي ومنطقي في نفس الوقت.

ففي الوقت الذي شقت فيه العلوم الطبيعية طريقها باستقلالها بموضوعها ومنهجها الخاص، حيث تكللت الدراسات في هذا الميدان بتحقيق نتائج باهرة ودقيقة، وهو ما اغرى الباحثين في الإنسانيات بالسير نحو منحى ما سارت إليه العلوم الطبيعية محاولين تأسيس علم مستقل يهتم بدراسة الظاهرة الإنسانية وهو ما يعرف اليوم بالعلوم الإنسانية.

إلا أن العلوم الإنسانية منذ بدايات تأسيسها تطرح حولها تساؤلات ابستمولوجيا، ولعل أولى هذه التساؤلات هو محل جدل بين قطبين تجسدا في الاسم نفسه علوم إنسانية مفاده كيف تجمع بين العلم الذي برز في دراسة الظواهر المادية مع الإنسانية التي هي صورة من صور المعنوية والتي هي في الأساس موضوع للفلسفة؟، وبالتالي كيف يمكن أن تكون الظاهرة الإنسانية أن تغدو موضوعا للعلم؟، وهل بالإمكان ان تقتبس العلوم الإنسانية المنهج التجريبي للعلوم الطبيعية وتتخذه منهجا لدراسة الظاهرة الإنسانية ؟.

ان هذه التساؤلات المطروحة شكلت موضوعات ابستمولوجية في العلوم الإنسانية وعرفت بتسميات عدة مثل أزمة الموضوعية في العلوم الإنسانية"، "أزمة المنهج في العلوم الإنسانية، وهذه الأزمات يشار إليها على أنها عوائق جعلت من العلوم الإنسانية متخلفة نسبيا عن العلوم الطبيعية. وبالتالي، المقصود ابستمولوجيا العلوم الإنسانية هي أنها الدراسات النقدية في موضوعات العلوم

الإنسانية قصد الكشف عن العوائق الممكنة، فهي تفحص الأسس والطرق العلمية في دراسة الظاهرة الإنسانية والتداولات الناتجة في المعرفة في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة.

2/الظاهرة الإنسانية كعائق ابستمولوجي في العلوم الإنسانية

ان مجمل الإشكاليات المطروحة في العلوم الإنسانية يعود بالدرجة الأولى إلى الموضوع محل الدراسة وهو الظاهرة الإنسانية نفسها:

– ففي الظواهر الإنسانية يتعذر التكرار لأن المتغيرات على فرض وجود قدر كاف منها قد لا تكون مماثلة في الخواص المطلوبة ، في الاطراد في هذا المجال أقل ظهورا منه في الظواهر الطبيعية ، وذلك لدرجة التركيب والتعقيد في الظواهر الإنسانية مما يصعب من أن نعزل جانبا واحدا من جوانب الموقف التجريبي عزلا يمكننا من تتبع ذلك المعامل أو المتغير وحده في تكرار وقوعه.

– صعوبة التكميم واستخدام ألفاظ كيفية ، ومن ثمة صعوبة صياغة قوانين دقيقة، وأن الباحث جزء لا يتجزأ عن الظاهرة التي يبحثها ، فلا بد أن يشعر اتجاهها بميول وأهواء معينة تفرضها الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والبنية الثقافية والبيئة الحضارية التي ينتمي إليها، مما يؤدي إلى الإسقاطات القيمية أو الأحكام الأيديولوجية على البحث، وهو ما يناقض طبيعة العلم الذي يأبي تدخل عنصر القيمة الفضفاض وهو العنصر الذي يصعب استئصاله من البحوث الإنسانية.

– الظاهرة الإنسانية ظاهرة ثنائية النسق تقوم على محور الإنسان ، هذا الأخير الذي يمتلك بعدين باطني وآخر خارجي سلوكي ، ولتحايث هذين البعدين اللذين يصعب الفصل بينهما أصبح من الصعوبة تطبيق المنهج التجريبي العلمي على هذه الثنائية.

–عامل الحرية والمقصود بها حرية الإنسان والمرتبطة بالمسير والمصير ما يجعل الظاهرة الإنسانية تخرج عن سيطرة قوانين السببية والحتمية والتي تعتبر من الركائز الأساسية للعلم التجريبي، وهو ما يؤدي إلى سقوط التنبؤ والتحكم فيها. تفرد الظاهرة وخصوصيتها جعل إمكانية دراستها دراسة علمية تجريبية محاولة تشويه لطبيعتها غير المتكررة وغير المتجانسة، وهو ما يمنع

عزلها وإعادة تكرارها، وهو ما يمنع عالم الاجتماع مثلا من تكرار الظاهرة التي يريد دراستها وإخضاعها للمشاهدة.

3/مشكلة الموضوعية

ان العلم الذي يُعرّف بأنه المعرفة المنظمة التي تدور حول موضوع معين، وتعتمد على منهج محدد، وتؤدي إلى نتائج وقوانين متطابقة، وبالتالي، فإن هذه المعارف والمعلومات والحقائق يجب أن تكون منظمة ومتناسقة، ويتم الوصول إليها عبر تفكير علمي منظم يعتمد على الموضوعية ويتجنب الذاتية، بمعنى آخر، تفترض الإبستمولوجيا وجود حقيقة موضوعية "خارج عقل الباحث"، يمكن الكشف عنها من قبل باحثين موضوعيين غير متأثرين بالأحكام القيمية، وذلك باستخدام طرق بحث موضوعية وقابلة للتكرار.

ومع ذلك، لم يسلم هذا التوجه البحثي، الذي صممه المنظرون الأوائل والمتأثرون بالطابع التجريبي، من النقد. فالباحث في العلوم الإنسانية، مهما حاول التخلص من ذاتيته، يجد نفسه عاجزًا عن تجنبها تمامًا. من هذا المنطلق، يتفق معظم الباحثين في العلوم الإنسانية على أن أهم العوائق التي تحول دون تحقيق الموضوعية العلمية تكمن في العوامل الذاتية والشخصية، مثل الانتماءات الإيديولوجية أو الدينية أو العرقية التي تشكل القيم التي يؤمن بها الباحث. هذه العوامل تؤثر بشكل كبير على العمليات الفكرية والعقلية التي يقوم بها، وتوجهه نحو خيارات قد لا تكون دائمًا علمية أو موضوعية. وهذا التأثير الواضح لمواقف الباحث على نتائجه جعل النقاد يؤكدون أن الموضوعية الكاملة في العلوم الإنسانية أمر مستحيل التحقيق، وأنه من غير المنطقي توقع إجماع أو اتفاق حول الوقائع وتفسيراتها.

4/مشكلة المنهج

تعاني العلوم الإنسانية، منذ نشأتها، من أزمة منهجية متجددة تعرقل قدرتها على الوصول إلى نتائج دقيقة ومقبولة على نطاق واسع، هذه الأزمة تتجلى في صعوبة تطبيق المناهج العلمية الصارمة على موضوعات ذات طبيعة إنسانية واجتماعية معقدة ومتعددة الأبعاد. تختلف هذه

العلوم عن العلوم الطبيعية في موضوعها وأدواتها وغاياتها، مما يثير تساؤلات مستمرة حول مدى علميتها ودقتها، لذا، يعد تناول أزمة المنهج في العلوم الإنسانية موضوعًا حيويًا لفهم تحديات هذا المجال ومحاولة تقديم حلول ممكنة. في هذا السياق، انقسمت الآراء حول طبيعة المنهج المناسب للعلوم الإنسانية إلى اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول، وهو الاتجاه الطبيعي، يروج للنموذج الذي تقدمه العلوم الطبيعية كمرجع واحد يجب الالتزام به في البحث حول الإنسان والمجتمع. يُمثل هذا الاتجاه الوضعيين ورواد رد الروح إلى المادة. الاتجاه الثاني هو الاتجاه المضاد الذي يهدف إلى الوصول إلى مستوى العلوم الطبيعية دون الالتزام بنموذجها يحاول هؤلاء الباحثون إيجاد منهج مناسب باستخدام المنهج الاستنباطي الخاص بالعلوم الرياضية أو الاستقرائي الخاص بالعلوم الطبيعية. يعتبرون أن الظاهرة الإنسانية، التي تعد موضوع العلوم الإنسانية، ليست مجرد عددًا أو شكلا كما هو الحال في العلوم الرياضية. ومع ذلك، تسعى الأزمة المنهجية داخل الاتجاه الثاني إلى إيجاد منهج واحد مناسب للعلوم الإنسانية بشكل عام. بدلاً من حل هذه الأزمة، كان هدفهم إيجاد منهج يلائم جميع العلوم الإنسانية. وعلى الرغم من ذلك، شهدت العلوم الإنسانية تنوعًا في المناهج المستخدمة، حيث يمكن العثور على مناهج مختلفة حتى في مجال واحد، مثل المنهج التحليلي النفسي والمنهج التجريبي والقياسي في علم النفس. وفي ضوء هذا، يطرح علماء المنهج تساؤلا حول إمكانية العثور على منهج واحد يختلف تماما عن المنهج المتبع في العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية. وبهذا السياق، يتساءلون عما إذا كان يمكن ترك العلوم الإنسانية ضحية للتشتت بين المناهج المتضاربة وغير الملائمة.

لقد رفض "وليام دلتاي " و " ريكريت " و " فندلبان " أي حديث عن الوحدة المنهجية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية هو الأمر الذي سبق ورفضه " كارل بوبر . معتبرا أن العلوم الإنسانية لا تخضع للتعميم والتجريب بالنظر إلى خصوصية الظاهرة الإنسانية لان طبيعة الظاهرة الطبيعية حتمية تنتظم فيها القوانين على عكس الظاهرة الإنسانية التي هي طبيعة حرة تتباين فيها القوانين ، وعليه لا يمكن للعلوم الإنسانية أن تضاهي العلوم الحقة، رافضين النظر إلى العلوم الطبيعية

كنموذج أعلى للفهم العقلي للواقع فهم يؤكدون على وجود تعارض كبير بين علوم مثل الفيزياء والكيمياء أو الفسيولوجية تهدف إلى تعميمات عن ظواهر متكررة يمكن التنبؤ بها ، وبين علوم مثل التاريخ يريد إدراك الخصائص الفردية موضوعاتها.

فإن وليام دلتاي يرفض هيمنة نموذج العلوم الحقة على العلوم الإنسانية التي يسميها بالعلوم الروحية، الظاهرة الإنسانية بالنسبة له تفهم ولا تفسر، فالفرق بين موضوع العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية يفرض على العلوم الإنسانية منهجا يلائم موضوعها وهو المنهج القائم على الفهم . ، فيرى ديلتاي أن الظواهر الطبيعية تقبل التفسير نظرا لخضوعها لحتمية طبيعية صارمة ، في حين الظواهر الإنسانية عبارة عن فاعلية روحية تتميز بحضور الوعي والإرادة فظواهر الفكر هذه لا تدرك إلا في إطار تجربة كلية داخلية تجمع بين الذات والموضوع يستحيل تجزيئها الشيء الذي يستدعي اعتماد منهج الفهم في دراستها ولما كان الإنسان جوهرا مكون من الوعي والإرادة وجب اعتماد منهج الفهم لقدرة هذا الأخير النفاذ إلى باطن الإنسان وعمق الظاهرة الإنسانية ، لذا يسمي وليام دلتاي العلوم الإنسانية بالعلوم الذاتية ، وهو نفس الموقف الذي دافع عنه ماكس فيبر حينما رفض إقامة أي تطابق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية على أساس الاختلاف الواقع بينهما ، لذا ينبغي دراسة الظاهرة الإنسانية وفق منهج فهم الفعل الإنسانية وتأويل مقاصده لأن السلوك الإنساني يكون مرتبط بسلوك الغير تبعا للقصد الذاتي ويكون مشروطا أثناء تطوره بالعالقة البينذاتية و قابل للفهم بطريقة تفاهمية انطلاقا من المعنى المقصود ذاتيا من طرف الفاعل وعليه يرى ماكس فيبر أن منهج الفهم والتأويل هو المنهج الكفيل للدراسة في العلوم الإنسانية.